مدخل إلى الآداب العالمية	السنة الثانية
أ/إدريس سامية	تخصص أدب

الآداب الغربية القديمة

2. الأدب الروماني

كانت الفترة الممتدة بين عام 753 ق.م ـ التاريخ التقريبي و الأسطوري لتأسيس روما على يد رومولوس و ريموس ـ وعام 240 ق.م فترة قحط أدبي و فني شامل في إيطاليا . لكن هذه الفترة نفسها تعد في المجالين العسكري و السياسي مرحلة البناء و عصر الأمجاد ، إذ تغطي خمسة قرون من الفتوحات المتتالية تتخللها عثرات لا يلبث أن يتجاوزها الرومان و في النهاية أكدت روما زعامتها لكل إيطاليا تقريبا، وفي عام 241 ق.م خرجت روما منتصرة من الحرب البونية الأولى ضد قرطاجة ، و بهذا الانتصار وضعت روما قدمها على أول الطريق نحو تحويل حوض البحر المتوسّط إلى بحيرة رومانية كنواة أولى وجوهرية في تأسيس الإمبراطورية الرومانية الشاسعة.

لكن بماذا نفسر بقاء الشعب الروماني قرابة خمسة قرون بدون أدب ؟

يذهب بعض الدارسين إلى القول بوجود ملاحم شعبية كبيرة تناقلتها الأجيال شفويا لعصور طويلة ثم تلاشت مع الزمن، لكن هناك من فند هذا القول بحجة غياب آثار مثل هذا التراث الشعري على ما وصلنا لاحقا من الأدب اللاتيني والذي لم يتح له التطور والنضج إلا بفضل التأثير الإغريقي . وقد اتجهت الدراسات الحديثة إلى تفسير ظاهرة القحط الأدبي في القرون الخمسة الأولى لروما بعدة عوامل أهمها ميل الرومان إلى الناحية العملية من الحياة على حساب الأدب والفن و الخيال و انحصار اهتمامهم على الحرب، وعامل عدم الاستقرار اللغوي، " فاللغة اللاتينية كانت تسير ببطء شديد جدا وراء الجيوش الرومانية المحاربة والفاتحة في أنحاء إيطاليا ذات اللغات و اللهجات العديدة، فلقد استطاعت هذه الجيوش أن تضم أراضي شاسعة إلى الممتلكات الرومانية و لكن النصر لم ينعقد للغة اللاتينية على سائر اللهجات الإيطالية إلا بعد ذلك بوقت طويل، وفي فترة متأخرة من التاريخ الروماني ".

بالإضافة إلى أن النثر كان أقوى من الشعر، فقد مهد فن الخطابة و كتابة الحوليات على يد الكهنة الطريق لتطور النثر الأدبي على يد الخطباء والمؤرخين العظام فيما بعد، كما كانت نصوص القوانين الرومانية تعلن على الملأ و تحفظ عن ظهر قلب، وليس غريبا أن يتطور النثر لدى شعب عملي تلعب الحروب والسياسة الدور الرئيسي في حياته، أما الشعر فلم يجد أرضية صالحة لتطوره قبل اتصاله بالشعر اليوناني، وكان الوزن الساتوري ـ وهو أقدم وزن لاتيني ـ نفسه عائقا فهو لم يكن، في رأي الدارسين، أداة متكاملة وطيعة في يد الشعراء .

1- نشأة الأدب اللاتيني :

بدأ الأدب اللاتيني بداية متواضعة في القرن الأول ق.م حيث ظهرت أشعار لوكريشس (96 – 55 ق.م.) والأشعار الغنائية التي كتبها كاتللوس عن الحب و المحبين، إضافة إلى نثر شيشرون (106-43 ق.م.) وبخاصة خطبه المشهورة التي امتازت ببلاغتها وفصاحتها، وبعد هذه البداية جاء العصر الذهبي في

الأدب اللاتيني بعد سقوط نظام الجمهورية واستقرار الإمبراطورية في عهد أوغسطس، وقد كان فرجيليوس (70- 19 ق.م.) أعظم ممثليه، وقد كتب قصائده المعروفة بـ"الرعويات " و" الزراعيات " على غرار الشعر الغنائي اليوناني، واتبع الأنموذج اليوناني في تأليف الملاحم، أما هوراس فقد كان شاعرا امتاز بتعدد أوزانه الشعرية وتعدد العواطف التي يعالجها، أما أوفيد (43 ق.م-17 م.) فقد انصب اهتمامه على الأساطير القديمة وخاصة الجانب المتعلق بالتحولات التي تطرأ على أشكال الآلهة والأبطال والشجر في تلك الأساطير والتي خلدها كتاب "التحولات "، وقد كتب أوفيد كذلك عن الحب و أرسى تقاليد عرفت بتقاليد الحب الأوفيدي امتازت بتمجيد عالم الحواس والشهوات، وفي مجال التراجيديا ترك سنيكا (4 ق.م.- 65م) عددا من المسرحيات مكتوبة على نهج المسرح اليوناني عند يوريبيدس، وإن كانت معالجته تختلف عن النموذج اليوناني من حيث تركيزه على عناصر العنف والإثارة من الجرائم الوحشية والأحداث الدموية وقد مارست هذه المسرحيات التراجيدية أثرا كبيرا على مسرحيي عصر النهضة ففي إنجلترا مثلا تمت ترجمتها في القرن السادس عشر بينما غابت نصوص التراجيديات اليونانية القديمة، وقد اعتقدوا خطأ أنها كتبت من أجل أن تمثل بينما كانت في الواقع تقرأ بصوت عال أمام المستمعين.

2- " إنياذة " فرجيل :

أ ـ التعريف بفرجيل :

ولد بوبليوس فرجيليوس مارو في عام 70 ق.م. من أسرة متواضعة و له شقيقان ماتا في سن مبكرة . تلقى دروسه الأولى في كريمونا حيث عاش بعض الوقت مع أسرته و لما بلغ الخامسة عشر شرع يدرس الخطابة في ميلان ثم في روما، لكنه ما لبث أن انجذب للدراسات الفلسفية والرياضية والطبية فانظم إلى الدائرة الأدبية الملتفة حول سيرو الأبيقوري في نابلي . توفي أبوه و تزوجت أمه ثانية وأنجبت له أخا غير شقيق، وفي عام 41 ق.م. فقدت أسرة فرجيليوس مزرعتها التي صودرت مع الأراضي الواقعة على الشاطئ الشمالي لنهر بو لصالح محاربي معركة فيليبي، لكن أسينوس بوللیو، الذي كان قد اكتشف مواهب فرجيليوس الشعرية ، تمكن من الحصول على تعويض للأسرة و قدم الشاعر الشاب لأكتافيوس .

نظم فرجيليوس في البداية شعرا يتغنى بالحياة الريفية يعرف بـ" الرعويات " ثم " الزراعيات " وهي قصيدة عن عمل وحياة الفلاح الروماني وهي تنقسم إلى أربعة كتب تهيمن عليها أربعة موضوعات هي الزراعة، تربية الأشجار والكروم، تربية المواشي تربية النحل، وقد استغرق الشاعر في نظمها ثلاثة عشرة سنة فوصل بها إلى مستوى عال من الإتقان في البنية الشعرية واللغة، أما الاستطرادات التقليدية في مثل هذه الأشعار- بوصفها من الموروث الملحمي فتتبع عضويا من المحتوى نفسه وتوظف لخدمة البنية الكلية للقصيدة الزراعية شكلا ومضمونا .

ب ـ " الإنياذة " :

لكن ذروة الإنجاز الشعري لفرجيل هي " الإنياذة "، وقد اعتبر الرومان الشعر الملحمي أسمى ضروب الأدب، وقد بدأ الشعر الملحمي عند الرومان بترجمة للأوديسا نقلها إلى اللاتينية مهاجر يوناني يدعى لينوس أندرونيكوس ونظمت بعدها ملاحم أخرى أعظمها الأنياذة، وهي تنقسم إلى 12 قسما أو كتابا، ويناهز عدد أبياتها العشرة آلاف بيت من الشعر .

يتناول الكتاب الأول من الإنياذة قصة إنياس عندما اقترب من الأرض الموعودة في الغرب، فتضرب الرياح سفنه على الساحل الإفريقي، ويتضح أن يونو زوجة جوبيتر هي التي أرسلت هذه العاصفة وسببت كل هذه المتاعب لأنها تعادي طروادة وسلالتها، وتستقبل ديدو الطرواديين في مملكتها المؤسسة حديثا.

وفي الكتاب الثاني وعلى مأدبة حافلة تعدها ديدو لإنياس يحكي لها الأخير قصة سقوط طروادة وقصة هروبه من ركام الحريق بأمر الآلهة و معه والدة أنخسيس و ابنه أسكانيوس و آلهة البينا تيس الطروادية . ويتضمن الكتاب الثالث في إطار هذه القصة نزول أنياس على ساحل أكتيوم الموطن الجديد للعراف الإغريقي هلينوس، وينتهي بموت والد أنياس أي أنخيسيس في صقيلية .

في الكتاب الرابع ترغب يونو في إحباط خطة إقامة طروادة جديدة في إيطاليا، وتوحد جهودها مع إلهة الحب و الجمال و التناسل فينوس بهدف إخضاع أنياس لحب الملكة الفينيقية ديدو، وكانت هذه الملكة قد عاهدت نفسها أن تظل على عهد الوفاء و ألا ترتبط بأي رجل بعد وفاة زوجها سيخايوس، ولكنها تقع في حب أنياس وتنقض عهدها وتحاول إبقاء محبوبها إلى جوارها ، و يشتد إصرارها برغم علمها بأن الأقدار تنتظر هذا البطل المغوار في مكان آخر ، و يخضع أنياس نفسه لهذا الحب الطاغي و ينسى رسالته السماوية، ووصل الأمر إلى حد أن جوبيتر اضطر لأن يذكره بهذه الرسالة على لسان رسوله ميركوريوس، فاستيقظ أنياس من غفوته و أحلامه و قرر الرحيل و باءت كل جهود ديدو بالفشل فلعنت حظها وانتحرت .

وعندما يبدأ الكتاب الخامس تفاجئ أنياس عاصفة قوية و هو في طريقه للساحل الإيطالي فيرسي مراسيه في صقيلية، وهناك يقيم احتفالات دينية وألعابا جنائزية بمناسبة ذكرى وفاة والده، وفي تلك الأثناء كانت يونو قد أوعزت إلى زوجات رجال أنياس بألا يذهبن معهم لأكثر من ذلك فقمن بإحراق السفن بهدف أن يمكث الجميع في صقيلية ، وبصلاة تضرعية من أنياس يهطل المطر غزيرا فيطفئ حريق السفن ولكنه ييأس من مواصلة الرحلة لغياب الثقة في عزم رجاله، فيظهر له والده أنخيسيس في الحلم وينصحه بأن يترك غير المتحمسين في صقيلية و يأخذ الباقين ويتوجه إلى إيطاليا ففيهم الكفاية .

وبالفعل ففي الكتاب السادس يرسي أسطول أنياس مراسيه في كوماي بإيطاليا و تقوده الكاهنة السيبيلينية بعد أن يتزود بالغصن الذهبي السحري حيث يدخل العالم السفلي عند بحيرة أفيرنوس ، و هناك يلتقي بالكثيرين منهم حبيبته الفينيقية المنتحرة ، ثم يلتقي بوالده في الإليسيوم مقام السعداء و المباركين ، و يطلعه أبوه على الأرواح التي ستولد يوما في روما ثم تنمو و تكبر و تصبح شخصيات و رجالات التاريخ الروماني منذ تأسيس المدينة وحتى عصر أوغسطس .

وبعد زيارة العالم السفلي نصل للكتاب السابع حيث يرسل أنياس وفدا إلى الملك لاتينوس الذي ـ طاعة لنبوءة قديمة ـ يستقبل الوفد بترحاب غامر، بل يعرض على أنياس يد ابنته لافينيا، بيد أن يونو تثير البغضاء بين الطرواديين واللاتين فتشعل نار الحرب بين الطرفين ولا يشترك لاتينوس نفسه في المعركة، ويقودها تورنوس الذي يطلب لافينيا لنفسه وتعضده الملكة أماتا .

وفي الكتاب الثامن يسعى أنياس لتوسيع دائرة حلفائه ، و بالفعل يبادر إفاندر حاكم المكان الذي ستقوم عليه روما فيما بعد بتزويد الطرواديين بقوات تحت قيادة ابنه الشاب باللاس، وكان لأنياس حليف آخر هو الملك الإتريسكي تارخون، وبطلب من فينوس صاغ فولكانوس إله الصناعة والحدادة أسلحة أينياس من بينها الدرع الذي زينته مشاهد تنبؤية تبشر بمستقبل التاريخ الروماني المجيد .

ويشدد تورنوس في الكتاب التاسع الضغط العسكري على الطرواذلكديين منتهزا فرصة غياب أنياس عن الساحة، ويحاول كل من نيسوس وصديقه يوريالوس أن يشقا بين صفوف العدو ليصلا إلى أنياس ويحيطانه علما بالموقف، ولكنهما بسبب تهور يوريالوس يدفعان حياتهما ثمنا لهذه المغامرة، وفي اليوم التالي يخوض الطرواديون معركة خاسرة للمرة الثانية .

ويبدأ الكتاب العاشر باجتماع إلهي علوي حيث يؤنب جوبيتر كلا من يونو و فينوس لتدخلهما في الصراع بين البشر، وفي هذا اليوم مضت الحرب الأرضية دون تدخل إلهي، وكان أنياس قد عاد إلى ساحة الوغى ، وحدث أن كان تورنوس قد أحرز نصرا سهلا على الشاب الصغير باللاس فقتله واستولى على أسلحته و

مثل بجثته ، فيبصر أنياس على الانتقام لباللاس من قاتله، وتحاول يونو إنقاذ تورنوس، وعندئذ يجد أنياس غريما جديدا و قويا في شخص ميزينتيوس فيدفع لاوسوس حياته ثمنا عندما حمى ظهر أبيه أنياس الذي انسحب من المعركة على إثر جرح أصابه .

وفي الكتاب الحادي عشر تبرم هدنة و يوقف القتال لدفن الميت ، و يعرض أنياس خطة لإنهاء الحرب وسفك الدماء على أن تجري مبارزة فردية بينه و بين تورنوس لحسم الموقف، ويظهر الملك لاتينوس استعداده لقبول هذا العرض ولكن تورنوس يصر على مواصلة الحرب، وبعد أن يقتل حليف تورنوس القوي كاميللا يميل ميزان القتال لصالح أنياس الذي يستعد لدخول المدينة .

ويبدأ الكتاب الأخير بالاستعداد للمبارزة الفردية ، بيد أن تورنوس لا يقبل اللقاء بأنياس مبارزا إلا بعد أن انفض الحلفاء من حوله و دخل أنياس المدينة عنوة ، و هكذا لم تعد يونو قادرة على أن توقف سير الأقدار، وعلى أي حال يقرر جوبيتر ألا تكون لاتيوم هي طروادة الجديدة ، و في النهاية يهزم تورنوس في المبارزة ويطلب الرحمة، ويميل أنياس للعفو عنه لولا أن تقع عيناه على الأسلاب الحربية ولا سيما أسلحة باللاس فيوجه له الضربة القاضية التي تنتهي عليها الإنيازة .

يرى بعض الدارسين أن في الإنيازة قسمان رئيسيان؛ الكتب الستة الأولى وهي تقابل الأوديسا أي الرحلة في اتجاه الوطن الموعود، والكتب الستة الأخيرة وهي تقابل الإلياذة أي الحرب من أجل تأسيس هذا الوطن ، و يلاحظ البعض الآخر تشابها كبيرا بين أوديسيوس و أنياس ، فكلاهما تتحطم سفنه ويرسو على شاطئ مجهول و يلتقي بإلهة متنكرة ، و تستقبله مدينة غريبة بالترحاب .. لكن بين البطلين فروقا واضحة، أهمها أن أنياس لا يبحث عن طريق العودة إلى وطنه القديم و إنما يسعى لأن يضع قدمه على طريق جديدة نحو المستقبل المجهول ، و هو لن يؤسس مدينة جديدة فحسب بل يضع الأسس لحياة جديدة تماما، و لأنه آخر طروادي على ظهر الأرض كتب عليه أن يكون أول روماني في إيطاليا، إنه إذا على النقيض من أوديسيوس يمثل مجتمعا بأسره أو بالأحرى فيه تكمن بذرة أمة جديدة ، و يتحمل أنياس مسؤولية ضخمة تفوق ما تحمله أوديسيوس، حيث يمر بسلسلة من الاختيارات و المحن لكي يثبت جدارته قبل أن يحقق رسالته، ويبدو في البداية مترددا حتى أنه يكاد ينسى مهمته لولا أن يذكر بها خاصة عندما يضطر لهجر حبيبته ديدو والتخلي عن سعادته الشخصية و لكن زيارته للعالم السفلي و نصائح أبيه واطلاعه على موكب الأبطال الرومان الذين سيولدون مستقبلا و يحققون المجد يقنع أنياس بتقبل قدره، حيث لم يترك أنخيسيس ابنه أنياس يصعد من العالم السفلي إلى الدنيا إلا بعد أن أشعل في روحه حب المجد القادم، وهنا فقط يتحول قبول أنياس السلبي أي الاستسلام لقدره إلى نشاط إيجابي و مبادرة فاعلة نحو تحقيق النصر .

مات فرجيل عام 19 ق.م. قبل أن يتسنى له مراجعة و صقل " الإنيازة " مما يبرر ما يلاحظ في بعض أجزائها من عدم الاتساق في الترتيب التاريخي للأحداث، لكن فرجيليوس تمكن ببراعة من الربط بين الأسطورة الطروادية و التاريخ الروماني، ونظم ملحمة قومية تجسد الفضائل الرومانية وتبشر بالآمال المعقودة على أبناء الجيل الأوغسطي، جيل فرجيليوس. وأنياس هو النموذج المثالي للشعب الروماني فهو شديد الورع والاحساس بالواجب، وقدره الإلهي في أن يصبح جدا ومؤسسا للسلالة الرومانية هو السبب الوحيد لوجوده، وهو يسير وفق خطة القدر رغم معاناته، وإلى حد ما تعتبر الإنيازة ملحمة دينية لأنها تقوم على أساس وجود قوى غيبية خارج إطار عالم البشر، ولكنها هي التي تخطط لحياتهم وترسم مسار الأحداث وفق خطة كونية تمتد على قرون و تؤثر في مصير كافة الأمم والشعوب .

<u>أهم المراجع المعتمدة:</u>

- فؤاد المرعي : المدخل إلى الآداب الأوربية.

- فايز ترحيني : الدراما و مذاهب الأدب.
- أحمد عتمان : الأدب اللاتيني و دوره الحضاري .
- أحمد صقر : تاريخ النقد و نظرياته.